الحسناء

الجزء الحادي عشر — المجلد الثاني

بيروت شهر ايار سنة ١٩١١

هاريت مرتينو

مؤلفة انكليزية شهيرة ولدت في القرن الماضي في نورويج ببلاد الانكليز ومالت منذ حداثتها الى الكتب والدرس فاحرزت جانباً من العلم ولا سيما علم المنطق وتعلمت اللاتينية والفرنساوية · الا ان ضعف بنيتها لم يمكنها من تحصيل كل ما كانت تصبو اليه من العلوم · ومما زاد في طين مصابها بلة اصابتها بالطرش وهي في العشرين من عمرها · فانفصلت من جرى ذلك بعض الانفصال عن العالم المحسوس وعاشت في عالم الروح والفكر · واندفعت بكليتها الى التأليف والتصنيف ولا سيما بعد موت والدها اثر وفاة بكره وموت خطيبها وافلاس المحل الذي كانت مالية العائلة مودعة فيه · وبدأت اولاً في كتابة قصص للاحداث ونشرها في احدى المجلات · ولم يكن دخلها السنوي بادئ بدء من هذا العمل يزيد عن خمس عشرة ليرة انكليزية فكانت تسدد هذا العجز من شغل ابرتها · فانها اقنت الاشغال البيتية واليدوية قبل ان تفرغت للكتابة والتأليف ·

ابتدأت شهرتها الكتابية سنة ١٨٣١ حين نشرت كتاباتها في الاقتصاد السياسي التي تهافت الناس على شرائها تهافت الجياع على القصاع · وبعد ان نالت

شيئاً من الشهرة اتخذت لها منزلاً كعبة القصاد ولا سيما اهل العلم والسياسة . وبعد ان نشرت في لندن كتاباً في « الضرائب » سافرت الى اميركا ولبثت فيها ردحاً من الزمان درست في خلاله احوال الولايات المتحدة ونشرت بعد عودتها الى بلادها كتاباً في الهيئة الاجتماعية الاميركية حملت فيه حملة شعواء على القائلين بوجوب الاسترقاق ومالأت القائلين بابطاله فهاج عليها الرأي العام وسلقها بالسنة حداد ولكنها لم تحفل بما تقوّله عليها خصومها لانها آثرت الانتصار للحق ولو قل انصاره ومناواة البطل ولو وفر اعوانه . ونشرت مقالة في مجلة وستمنستر موضوعنا عصر الشهداء في الولايات المتحدة الاميركية اقامت الاميركان واقعدتهم . وكان لها وقع عظيم لدى معاشر الانكليز حتى جعلتهم مشاركي حزب تحرير الرقيق في افكارهم ونواياهم

وكتبت في غضون هذه المدة ثلاثة مجلدات في موضوع جليل هو « الدليل الى الخدمة » واحد هذه الكتب المسمى « الفتاة في كل عمل » جعل الناس عموماً يعتقدون انها وهي فتاة في بيت ابيها كانت تتعاطى كل انواع الاعمال المنزلية . ولكنها لم تستأ من ذلك بل ارتاحت كل الارتياح الى نشر هذه الاشاعة عنها . فلتته الى ذلك كل فتاة تستنكف ان تساعد والدتها في اشغال البيت ولو كانت حالتها المالية دون الوسط)

وفي ١٨٣٩ زارت فارة اوروبا انتجاعاً للعافية واعتزلت في مكان منفرد الا انها لم تكسر في عزلتها القلم الذي كان ينسيها وهو يجري في ميدان القرطاس ما كانت تعانيه احياناً من الالم . وفي عزلتها هذه كتبت رواية موضوعها « الساعة والانسان » وكتباً اخرى لتسلية الاحداث وكتاباً آخر في « غرفة المريض » وفي هذه الكتب يرى القاريء النبيه في تضاعيف السطور روح الكاتبة اللطيف محساً ودقة شعورها ظاهرة كل الظهور بخلاف ما يراه في كتبها الاخرى الانتقادية من روح القسوة

والبيوسة . ولا بدع فان لكل مقام مقالاً ولكل زمان دولة ورجالاً

وبعد معاناة مضض الداء بضعة اشهر ابانت منه وعاودتها قواها دون ان تتناول دواء الاَّ انها خضعت لسلطان التنويم المغنطيسي

وفي سنة ١٨٤٦ غادرت بلادها قاصدة بلاد مغرب الشمس فزارت مصر وفلسطين وساحت في سوريا ووقفت على احوالها . وبعد عودتها نشرت كتاباً دعته « الحياة الشرقية » اماطت فيه النقاب عن اسرار الاديان وتدرجها على مبدإ ناموس النشوء والارتقاء . ثم أنَّفت على اثر ذلك كتاباً في التهذيب المنزلي ابانت فيه ان احسن الذرائع الموصلة الى هذا النوع من التهذيب ليس الاوامر المشددة والتهويل من جانب الوالدين والطاعة بالذل والخنوع من جانب الولد بل بتدريب عقل المهذب ومنحه الحرية وبالنظر الى شدة رغبتها في التهذيب القت على احداث بلدتها سلسلة محاضرات مفيدة ثم طبعتها لتعم فائدتها

وسنة ١٨٥١ طبعت كتاباً في « شريعة الانسان وارتقائها » بطريقة المحاورة بينها وبين شخص آخر ابانت فيه لاول مرة لجمهور القراء اعتقادها الديني وهو اللاأدرية التي اصحابها لا ينكرون العلة الاولى او علة العلل ولكنهم يسمونها الغير المعروفة فسخط عليها كثيرون من مريديها

ثم حداها ميلها الفطري للدروس الفلسفية الى ترجمة مؤلفات الفيلسوف كومت الفلسفية الى الانكليزية فجاءت ترجمة شهد لها انها البلغ من الاصل

وفي سنة ١٨٥٥ شعرت بدنو اجلها لمرض المَّ بقلبها فسارعت الى انجاز أمنية طالما منَّت بها نفسها الا وهي كتابة سيرة حياتها بقلمها لتطبع وتنشر على أثر وفاتها . ولكنها غالبت الداء وغالبها عشرين سنة بعد ذلك اذ لم تدركها الوفاة حتى سنة ١٨٧٦ . الا ان هذه العشرين سنة لم تكن سني كمل وجود بل

سني عمل واجتهاد . لانها كانت تحسب ان كل يوم يمرُّ بها يدنيها من الابدية خطوة . وعليه رأت من الواجب ان تضاعف همتها واجتهادها لكي تنجز ما عليها من الاعمال قبل ان ينفصم حبل الفضة وتعود الروح الى باريها . فحبَّرت في غضون مرضها ١٦٠٠ مقالة للديلي نيوز وحدها عدا عما كتبته الى غيرها من المقالات الرنانة لا سيما في سير مشاهير الرجال والنساء

الا انها تؤاخذ في كتابتها سير الافراد عَلَى امر ذي بال يراه القارئ البيه في تضاعيف السطور وهو انها كانت تحمل الحملات الشعواء عَلَى من تكره فلم تكتب مجرَّدة عن الميل او الهوى شأن المؤرخ المحقق . وهذه المعرَّة يوصم بها كثيرون من كتاب عصرنا فانه يندر ان تجد بينهم من يكتب منزَّهاً عن الهوى .

وكان من مبدأها ان لا تألو جهداً ولا تدَّخر وسعاً في الاخذ بناصر رجال الاصلاح حيثما كانوا وتعضد المشروعات الخيرية بكل قواها . وتبذل جهد المستطيع في مؤاساة جيرانها المعوزين وتخفف عنهم مضاضة الفاقة بكلام احلى من الشهد و كانت في معاملة خدمتها قدوة للسيدات فلم تكن متغطرسة جافية حتى ينظروا اليها نظر الخوف والبغض بل جامعة بين الشدة واللين فكانوا ينظرون اليها كصديقة محبة

ونتعلم من تاريخ حياة هذه الفاضلة مثالة الاجتهاد . فانها لم تكن ذات مواهب عقلية خارقة العادة لكنها بلغت ما بلغته من الشهرة باجتهادها وتوجيه فكرها وكل قوى عقلها الى ما تريد البحث فيه حتى يتجلى امامها صورة واضحة فتجسمها بالكلام عَلَى اسلوب مفهوم خالٍ من التعقيد وهذه الخلة صيرتها بعيدة النظر سديدة الرأي

وكانت مصيبة الطرش التي منيت بها في ربيع صباها بركة لها لانها دفعتها لى ايثار العزلة عَلَى المعيشة في الضوضاء والجلبة وانجتها من بلبلة الافكار وشرورها .

ولولا مصيبة الطرش ما استطاعت ان تؤلف ستة وثلاثين كتاباً وتكتب الوفاً من المقالات وتنشرها في المجلات والجرائد الشهيرة فهي قدوة حسنة للبشر في تحمل نوازل الحياة بالصبر وعدم الاستسلام للضجر والتذمر بحيث تصير الحياة عبئاً ثقيلاً يرزح تحته المرء متوجعاً متألماً

ولولا فقدان المال الموروث عن ابيها وموت خطيبها واخيها لما رأت من حاجة الى الاشتغال بالتأليف والكتابة ولكان تاريخ الامة الانكليزية خلواً من ذكر هذه الشهيرة بل اشهر نساء الانكليز في التأليف والكتابة

فلا يجب ان نأنف من المحن والمصائب لانها قد تحمل لنا في مطاويها بركات عظيمة ولو كان في ظواهرها لدغات السمة

داود قربان

يربي الافرنج بناتهم كما يربون بنيهم على معرفة قدر نفوسهم بل هم يجعلون الحجر الاول من اساس التربية معرفة المرء قدر نفسه ولا بدع فمتى عرفت الابنة انها مخلوق سامي المنزلة عظيم الاهمية تجتهد في حفظ كرامتها وصيانة قدرها وكذلك الصبي فانه لا يأتي عملاً منكراً ولا يتدانى الى ما يشين سمعته ويشوّه مقامه بعكس ما لو ربي في حجر الذل واجرع كأس الامتهان فانه يرى حينئذ نفسه حقيراً منحطاً لا يعيب سواد حظه لطخة ولا يؤثر في آدابه الخلقة خرق وعليه زري اكثر الاشرار وجميع اللصوص هم ممن لا مقام لهم في الاجتماع يحافظون عليه ولا منزلة رفيعة لنفوسهم يعملون على استبقائها

لبيب هاشم